

اليوم رقم 4

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم سنتدبر بقية سور هذه المرحلة والتي تتشابه في ملامحها، وبداياتها وأسلوبها الصارم ومواضيعها التي منها الوعيد الشديد لقريش وشحذ همة محمد للصبر على الأذى النفسي نتيجة ما يلقيه من سخرية، وهي: سورة النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، والقمر. أما نوح – التي تأتي قبل القمر – فهي تتحدث عن قوم نوح الذين شابهوا قريش في الكفر فأهلكوا. ويكون عدد سور اليوم ثمان سور، ثلاث منها من السور القصار.

والبداية مع سورة النجم التي ترد على اتهامات قريش لمحمد التي تعالت وتكررت بلا انقطاع، من أنه كاذب يهذي بعبارات غير معتادة ويزعم أنها من الله: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ} {2} وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ} {3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} {4} عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ} {5} ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ} {6} وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ} {7} ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} {8} فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ} {9} فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} {10} مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} {11} أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ} {12} وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ} {13} عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ} {14} عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ} {15} إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى} {16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} {17} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} {18}.

(الآيات: 1-4) تأكيد قاطع أن محمد (صاحبكم) لم يضل ولم يغوي وما يتلوا عليكم ليس من عباراته الشخصية، بل وحي. (دليل آخر على أن الرسول يدعوا بالقرآن فقط، ولا يستخدم كلاماته الشخصية "حديث" للدعوة).

(الآيات: 5) الوحي الذي يتلوه الرسول تعلمه من أحد الملائكة (شديد القوى) له قوى خارقة مقارنة بالبشر، ومن ذلك وما تخبرنا به (الآيات: 6-9) فهذا الملك له قدرة على التشكل بهيئة مرئية للبشر، مع أنه مخلوق نوراني "من طاقة". وقد تشكل بالفعل بهيئة مرئية في الأفق أمام محمد قبل أن يتلقى الوحي، لإثبات أن محمد أصبح رسولاً لله. (وتحدثنا عن هذا في بداية اليوم الأول) وكون القرآن لم يخبرنا قبل هذه السورة، لأن الإخبار بما سبق وحدث جاء كرد لتساؤلات قريش التي كانت تسأل محمد أن يخبرها كيف يتلقى الوحي من السماء ومن يحمله له.. الخ.

فتقول السورة أن محمد علمه أحد الملائكة الذي سبق أن رآه مرتين:

الأولى رآه في الأفق، ثم اقترب من محمد حتى كان قاب قوسين أو أدنى (حوالي ستة أمتار). وفي تلك المرة أوحى الملك لمحمد أول وحي يتلقاه: فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى". فإله في تلك اللحظة أوحى لعبده محمد بواسطة ذاك الملك.

وقد كانت رؤية محمد للملك حقيقة ولم تكن تهيؤات: " مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى "

فكيف تمارونه (تتحدونه) على أنه لم ير ما رآه بالفعل: " أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ".

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى {13} عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى {14} عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى {15} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى {16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى {17}

محمد رأى ذلك الملك مرة أخرى، وكان ذلك عندما نزل الملك على الأرض بقرب شجرة سدر كانت على حافة أرض عشبية (أو التي نسميها حالياً روضة). ونتيجة لقرب الملك من الشجرة غشيها حالة غير طبيعية فقد تكون ذبلت لأن الملك مخلوق من طاقة أثرت على الشجرة. وكانت الرؤية حقيقية وليست تهيؤات، ورؤيته للملك من آيات ربه الكبرى التي جعلته يتأكد أنه أصبح رسولاً لله وعلى علاقة بالسماء. (المفسرون والمحدثون صوروا الحادثة صوراً خرافية ونقلوا شجرة السدر الأرضية المعروفة في طول جزيرة العرب وعرضه إلى تحت عرش الرحمن حيث لا أحد من الخلق يستطيع الذهاب).

ثم تخاطب السورة قريش: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى {18} أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى {19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى {20} إذا كان محمد رأى هذه العلامات الكبرى من ربه المتمثلة برؤية احد الملائكة، وبتلقي الوحي، فما الذي رأيتموه انتم وعلمكم عقائدكم؟ من باب السخرية. أنتم يا قريش رأيتم اللات والعزى ومناة وهي أسماء أصنام. فالعبارة تسخر منهم وتقول أن عقائدكم الوثنية ليس لها علاقة بالسماء، ولا بد أن من علمكم إياها أصنامكم الثلاثة، من باب السخرية.

وللمرة الثانية بعد سورة الجن تشير الآيات إلى أن قريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، وسنرى سوراً فيما بعد تتحدث عن هذا: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى {21} تِلْكَ إِذْ قَسَمَ ضِيزَى {22} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى {23}.

وتؤكد السورة بعض الحقائق: أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى {24} فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى {25} وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى {26}.

وهنا لابد للإشارة إلى أن الملائكة لن تشفع للناس يوم القيامة (بالمفهوم السائد للشفاعة) وهو المرادف لمعنى لفظ "الواسطة". برغم أن الآية تقول: " إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى " فهذا لا يعني أنهم سيشفعون وإنما هو أسلوب القرآن. وهذا مماثل لقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109

وقوله: {.... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...} البقرة 255

والتي لا تعني أنه سيكون هناك شافع ومشفوع يوم القيامة، سواءً كان الشفيع هو محمد أو غيره، لأن كل نفس ستكون بما كسبت رهينة.

وتعود السورة للحديث عن معتقد قريش عن أن الملائكة إناث، دون أن يكون لهم مصدر موثوق: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى {27} وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا {28} فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {29} ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى {30}.

والمخلوقات اللاجسدية (النورانية) المخلوقة من الطاقة مثل الملائكة والجن لا جنس لها لأنها لا تتوالد وتتناسل. فجبريل ليس له أب ولا أم ولا زوجة وأبناء، وكذلك بقية الملائكة والجن.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى {31}

تقول الآية أن الله سيجزي الكافر والمؤمن كل بما يستحق. والمؤمنون تعرفهم للآية التالية بأنهم: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى {32}

وهذه السورة نزلت كما نلاحظ، في وقت كان المطلوب لدخول الجنة: الإيمان بالله والبعث، الصلاة بدون أوقات محددة، الإنفاق، البعد عن الغش التجاري. والآن هي تضيف البعد عن كبائر الإثم والفواحش بالإجمال (ومعايير كبائر الفواحش هنا هو المفهوم السائد في تلك اللحظة). واللمم تعين صغائر المعاصي (الإثم).

هنا يمكن للقراء ملاحظة كيف أن أخذ السور كما نزلت يعطينا فرصة لفهم الآيات، فالمفسرون والمحدثون الذين يأخذون كل جزء من آية أو آية وكأنها نزلت لوحدها يقولون أن المقصود باللمم هنا القبله والتحرش الجنسي فيما دون الجماع. لكنه هنا واضح أن السورة نزلت قبل الحديث عن الزنا، وقبل تشريعات كثيرة، لذا فاللمم يعني صغائر الذنوب لأن الآية تنهى عن كبائر الإثم (الذنوب) وتستثني اللمم (صغائرها) فهي وإن كانت معاصي فهي لا تدخل النار، بعكس الكبائر. وسنرى في السور التي تتحدث عن الزنا أنها تنص على تحريم كل ما له علاقة بالزنا، بما في ذلك التحرش والمقدمات. (دليل على عدم جواز تزكية البشر للبشر: "فلا تزكوا أنفسكم". فلا يوجد بشر معصوم).

(الآيات: 33-41) تخبرنا عن أحد أغنياء قريش الذي استمع لمحمد وهو يتلوا آيات الإنفاق، وشاهد كيف تعمل على التكافل الاجتماعي وتحمي كرامة المحتاج، فقام بالإنفاق لمرة واحدة، ثم توقف، وامتنع عن الاستمرار: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى {33} وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى {34} أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى {35} أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى {37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى {38} وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {39} وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى {40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى {41}.

ويستفاد من هذه الآيات في موضوع الإنفاق أنه مستمر وليس مرة واحدة في العمر أو في العام كما يفعل بالزكاة الآن، بل هو واجب كلما دعت الحاجة. (يضاف في قانون الإنفاق أنه واجب كلما دعت الحاجة لمن يضع ملف للقوانين التي نص عليها القرآن).

كما يستفاد من الآيات دليل على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ولا يقبل عمل بالنيابة عن شخص آخر. فلا يقبل حج عن الغير مثلاً كما يفعل بعض الناس. لأن ما سيحاسب عليه المرء هو ما تسجله صحيفة أعماله هو، كما لا يقبل شفاعة من أحد لأحد.

(الآيات: 42-48) كنايةات للتفكير بالخلق: وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى {42} وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى {43} وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا {44} وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى {45} مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى {46} وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى {47} وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى {48}.

(الآية: 49) تقول: "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى". وهذا يعني أن قريش قد تكون تعظم نجم الشعري، والآية تقول أن الشعري مخلوق له خالق هو الله، لا يستحق أن يعبد.

ثم تذكر السورة عاد و ثمود وقوم نوح على عجلة كعبرة لقريش وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى {50} وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى {51} وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى {52} وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى {53} فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى {54} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى {55} ، قبل أن تؤكد على أن القرآن تذكرة ونسخة مكررة من الوحي السابق للرسل الأولين: هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى {56} .

(الآيتان: 57-58) دليل على أساليب القرآن المميزة: أَرَفَتْ الْأَرْفَةَ {57} لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ {58} . هنا الآية تقول : أرفة الأرفة في حديث عن القيامة، والقيامة لم تأت بعد، ومع ذلك فالعبارة تتحدث بصيغة الماضي للحديث عن المستقبل.

ثم تخدم السورة قائلة: أَقْمِنُ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ {59} وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ {60} وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ {61} فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا {62} . تحذير لقريش من سخريتهم بدعوة محمد وعدم أخذهم مسألة البعث بمأخذ الجد، وكيف لا يؤمنون، وكُنِّيَ بالسجود والعبادة عن الإيمان.

(الآية: 59) دليل على أن الحديث يطلق على القرآن زمن الرسول.

وفي هذه الفترة نزلت سورة الهمزة: وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ {1} الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ {2} يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ {3} كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ {4} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ {5} نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ {6} الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ {7} إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ {8} فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ {9} .

وهي تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي.

ولو أضفنا هذه السورة للآيات: 33-41 من السورة السابقة فهناك إشارة إلى أن الإسلام يسعى للتعایش السلمي مع قريش مع إبقائها لمعتقداتها، إذا ما قبل أغنيائها بالإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، لكن قريش لم ترغب في ذلك.

سورة ن والقلم

كما سورة النجم السابقة هذه السورة تبدأ بالرد على اتهامات قريش لمحمد: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ {1} مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ {2} وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ {3} وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ {4} فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ {5} بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ {6} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {7} .

وتشير سورة "ن والقلم" أن قريشاً لما رأت أن الرسول استمر في دعوته لسنوات برغم عدم تجاوبهم معه، حاولوا أن يجدوا وسيلة تقنعه بالتوقف عن الدعوة، فجاءه التحذير الاستباقي: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} {8} وَدُّوا لَوْ تَدْعُهُمْ فَيَذْهَبُونَ} {9}.

وقريش يعتقدون أن محمداً ليس مرسلأ من الله، ويظنون أنه يسعى لتحقيق هدف دنيوي، لو عرفوه وحققوه له فسيتوقف عن الدعوة. والسورة لا تذكر أن قريشاً قد تقدمت بالفعل بعرضها على محمد، لكنها تحذر الرسول من أن يقبل أي عرض منهم "فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ"، فيما لو أقدموا على ذلك.

(الآيات: 10-16) تخبرنا عن أحد كبراء قريش وأنشطهم في الصد عن الإسلام في تلك المرحلة: {وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} {10} هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ} {11} مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} {12} عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ} {13} أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} {14} إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} {15} سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ} {16}. لقد كان هذا القرشي ممن حاز كل مقومات الشرف الاجتماعي الذي كانت قريش تعتقده وتفاخر به، وهو كثرة المال والأبناء الذكور: {أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} {14}. وكان يصف القرآن بأنه خرافات قديمة: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} {15}. وتبشره الآية (16) بمصيره باستخدام عبارة "سنسمه على الخرطوم" كناية عن عذاب النار يوم القيامة. (دليل على أساليب القرآن واستخدام الكناية والاستعارة)

(الآيات: 17-33) تسرد قصة للعبارة، تشابه وضع قريش التي تكفر بالدعوة لتمسكها بمتع دنيوية هشة من السهل تلفها وحتى لو لم تتلف فسرعان ما يموت صاحبها ويفقدها، وبعد ذلك يواجه مصيره المحتوم الأبدي يوم القيامة: إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} {17} وَلَا يَسْتَنْتُونَ} {18} فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ} {19} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} {20} فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ} {21} أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ} {22} فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ} {23} أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَّسْكِينٌ} {24} وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ} {25} فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ} {26} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} {27} قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ} {28} قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} {29} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ} {30} قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} {31} عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ} {32} كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {33}.

(الآيات: 34-41) تشير إلى وضع كان سائداً في مكة، حيث أن قريش تعتقد أنه إن كان هناك بعث فسيكرمهم الله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ {34} أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {36} أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ {37} إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ {38} أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ {39} سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ {40} أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ {41}.

وهو ما كررت الإشارة له سورة فصلت من سور المرحلة الخامسة التي سنأتي إليها في حينها والتي تقول: لَئِنْ أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ {50}.

فترد عليهم الآيات وتقول من أين بنيتم ظنكم هذا؟

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {36} أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ {37} إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ {38} أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ {39}.

(الآية: 42) يعتبرها المفسرون والمحدثون دليل على أن الله له ساق. والآية جاءت ضمن سورة تتحدث بالاستعارات والكنائيات ومثلها السورة قبلها. وهي هنا تشير إلى يوم القيامة، وتستخدم الكناية للتعبير عن هول الموقف، كما يقال في المثل: "كشفت الحرب عن ساقها" أي حمي وطيسها. وليس لله ساق (تنزه عن ذلك) وليس للحرب ساق.

وما يؤكد أنها كناية الآية التي تليها: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ {42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذُلًّا وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ {43}.

فكشفت الساق كناية عن هول القيامة، والسجود (في موضعين) كناية عن الإيمان، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة.

وبقية آيات السورة تخاطب محمداً وتتوعد قريش على استمرارهم على الكفر: فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ {44} وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ {45} أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّقْتَلُونَ {46} أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ {47} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ {48} لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ

مَذْمُومٌ {49} فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {50} وَإِنْ يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ {51} وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {52}.

ومما يستفاد من الآيات، ما يلي:

(الآية: 44) كلما ذكر "الحديث" في القرآن فهو يعني القرآن.

(الآية: 46) أول مرة تذكر السور أن محمد لا يأخذ أجراً على دعوته، سواء كان مادياً أو ينتفع معنوياً. ويستفاد من هذا أن كل أمور الدين لو أخذ لها أجر في الدنيا فليس لها أجر في الآخرة. للأسف الآن أصبحت وظائف بمرتبات شهرية: إمام، مؤذن، داعية، مقرر.... بل استحدثت وظائف دينية: قاضي، مفتي... الخ. وسيتكرر ذكر ما ورد في هذه الآية في سور قادمة.

(الآيات: 48-50) تشير إلى أن عبء الدعوة أصبح يثقل كاهل محمد جداً، فقريش تسخر، وتؤذي وتلاحق ولا تستمع. وسنوات عديدة مرت دون أن يطرأ أي تحسن على سير الدعوة، ولا يأتي آخر النهار إلا وهو مرهق ويكاد يصل للانهايار. ونفسه تحدثه بكل شيء، ومن ذلك الهرب وترك التبليغ، فينزل عليه الوحي: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ {48}.

وصاحب الحوت هو رسول الله يونس الذي هرب بالفعل من قومه لما ينس من طاعتهم له، في موقف مماثل لموقف قريش من محمد. لكن يونس استغفر ربه وتاب، بعد أن تعرض لهجوم حوت، ولما شفي عاد مرة أخرى لقومه ودعاهم فاهتدوا، كما ستخبرنا الآيات: 139-147 من سورة الصافات من سور المرحلة الخامسة، والتي ستأتي لاحقاً.

(الآية: 51) تعطي صورة أخرى من صور المضايقات التي يتعرض لها الرسول من قريش، فعندما يمر بجمعهم يسلقونه بنظرات حداد ملؤها الغيظ والكراهية: {وَإِنْ يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ {51}.

الجدير ذكره، أن أتباع السلف يعتبرون هذه الآية دليل على وجود العين، وما ساعدهم على لي معنى الآية ليتوافق مع ما يريدون، هو أنهم يقولون أن الآية أو جزء الآية ينزل لوحده ولا ينزل القرآن سورة سورة. ولو قرأوا السورة كوحدة واحدة وتتبعوا ترابط المواضع فلن يستقيم لهم أن يقولوا عن الآية إلا أنها تصور كراهية قريش لما يقدم محمد.

ثم نزلت سورة الطور التي سنجد أنها تكرر كثيراً ما ورد في السورة السابقة ن والقلم. وتبدأ بالهجوم على قريش وتتوعدهم بنار جهنم الذي ينكرون: وَالطُّورِ {1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ {2} فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ {3} وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ {4} وَالسَّكْفِ الْمَرْفُوعِ {5} وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ {6} إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ {7} مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ {8} يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا {9} وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا {10} فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ {11} الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ {12} يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً {13} هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {14} أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ {15} اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {16}.

وتعطي الآيات صوراً حسية لانقيار الكون، ولما سيكون يوم القيامة. حيث سيدخل المشركين (قريش) النار، وعندها كأن الله سيسألهم: أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟". لأنهم كانوا يقولون في الدنيا أن ما نسمع من محمد "سحر". فهل تأكدتم الآن أنه لم يكن سحراً، وكان يقول لكم الحقيقة لكنكم أغمضتم أعينكم عنها.

(الآيات: 17-28) تعطي صوراً حسية لما سيكون عليه المؤمنون في الجنة: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ {17} فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ {18} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {19} مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ {20} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ {21} وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ {22} يَتَنَزَّاعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ {23} وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ {24} وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ {25} قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ {26} فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ {27} إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ {28}.

(الآية: 20) تذكر الحور للمرة الثانية بعد سورة الرحمن في الآيات (56، 74، 72).

(الآية: 21) تقول – من باب الترغيب- أن ذرية المؤمن ستنتبعه في الجنة. لكن بشرط أن الذرية مؤمنة مثل أبيها. فدخل الجنة لأنهم آمنوا وليس لأنهم ذرية مؤمن، لأن كل امرئ بما كسب رهين.

(الآيات: 25-28) تصور حديثاً كأنه حدث بالفعل بين أهل الجنة (ممن آمن من قريش) يحكي لسان حالهم حينها.

ثم تشير الآيات إلى بعض اتهامات قريش لمحمد وترد عليها: فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ {29} أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ {30} قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ {31} أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ {32} أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ {33} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ {34} أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ {35} أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ {36} أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ {37} أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ {38} أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ {39} .

والآيتان 29-30 تكرر ما ذكرته أول سورة ن والقلم التي تقول: مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ {2} . لأنه في هذه الفترة كانت قريش تكرر هذه التهمة بعد أن يؤست من توقف محمد عن الدعوة، ولم يعد لديهم حجج يقدمونها لتبرير رفضهم للدعوة. وهذه حالة مماثلة لدولنا العربية التي تشتعل فيها الثورات المطالبة بالعدالة والحصول على الحقوق، فتقوم الحكومة باتهامهم بأنهم متطرفون أو إرهابيون أو خوراج أو جردان أو موالين لأنظمة أو دول خارجية الخ من الألفاظ التي أصبحنا نسمع بها يوميا بغض النظر عن الحكومة التي تصدر منها.

(الآيتان: 30-31) تشير إلى أن قريش تفكر وتخطط لاغتيال محمد، والآية تطمئنه.

ومكة بلد آمن، وقد احترمت هذه الميزة من قبل أهل مكة منذ عهد إبراهيم ومن قبل كل سكان جزيرة العرب بمختلف عقائدهم. ولم تتعرض مكة لأي غزو خارجي، كما أن من دخلها فهو آمن بالفعل. ولم يسجل التاريخ أي اختراقات لهذا القانون الإلهي. وفكرة اغتيال محمد لم تصل لحيز التنفيذ، لأن قريش لا تستطيع خرق هذه المعاهدة الدولية الإلهية بقتل محمد، لأنها حامية للبيت وقوانينه، وقائمة على خدمته.

وربما كانت تعمل على استدراج محمد لخارج الحرم وقتله، هذا وارد. وما يؤيد هذا أن قريش عندما علمت أن محمداً قد تسلل من مكة مع الصديق مهاجراً لحقت به ومشطت الطريق لعلها تجده فتقتله، خارج مكة. ولو بقي في مكة فلن تمسه بسوء. ولا يمكن قبول قول الإخباريون أن قريش قررت قتل محمد في الصباح التالي لأحد الليالي، وأنه استطاع خداعهم بأن أناب عنه علي ابن أبي طالب لينام في فراشه. فكانت قريش تنظر من خلال ثقوب في باب الدار وترى النائم فتظنه محمد، ولما جاء النهار ونهض النائم اكتشفوا أنه علي وليس محمد، الذي استطاع التسلل خارج مكة تحت جناح الظلام. وهذا الكلام عبارة عن قصة مختلفة في عصور لاحقة تهدف

لإضافة فضيلة لعلي ابن أبي طالب أكثر من رواية حقيقة ما حدث. لأن قريش لو كانت قد تجرأت على قتل محمد في مكة، لقتلوه حال عزمهم على ذلك، واقتحموا عليه داره، ولن ينتظروا حتى يستيقظ في الصباح. لأن من يريد أن يقتل لن يهتم بإزعاج الضحية. وسوف تتعرض سورة بنو إسرائيل للموضوع مرة أخرى.

(الآية: 33-34) أول تحد بالإتيان بمثل القرآن، لإثبات أنه ليس من كلام رسول الله. وسيتكرر هذا التحدي في سور قادمة. (دليل على أن محمد لا يدعوا بغير القرآن، لأنه لو كان يدعوا بكلامه الشخصي فلن يأتي هذا التحدي). كما أنه دليل على أن القرآن ينزل سورة سورة، ولو كان ينزل آية أو آيات لجاء التحدي بقول آية أو آيات.

(الآيات: 33-38، 41) تكرر لما ورد في (الآيات: 35-39) من سورة ن والقلم، ولكن بصيغة مختلفة، حيث تتساءل الآيات عن مصادر قريش في زعمهم أن محمد يتقول القرآن، وهل لديهم سلم (طريقة للصعود للسماء ليأتوا بالخبر اليقين).

(الآية: 39) تشير على أن قريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، كما سورتي الجن والنجم: أم لهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ {39}. وسيتكرر هذا الزعم كثيرا مستقبلاً.

(الآية: 40) للمرة الثانية يذكر القرآن أن الرسول لا يأخذ أجر مادي ولا معنوي مقابل دعوته الناس للهداية: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّتَقَلِّوْنَ {40}، بعد الآية 46 من السورة السابقة ن والقلم. وسيتكرر هذا الزعم مستقبلاً.

(الآية: 41): {أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ}، تكرر للآية: 47 من السورة السابقة ن والقلم: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ {47}.

الآية 42: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}، تعود لما ذكرته الآيتان 30-31 من تخطيط أو تفكير قريش قتل محمد.

(الآيات: 43-47) دعوة عقلانية للتفكير ووعيد لقريش: أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ {43} وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ {44} فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ {45} يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ {46} وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {47}.

(الآيتان: 48-49) شحذ همة محمد وتحديث لبرنامج التأهيل النفسي. وهو ما يدل على أن محمد يتعرض لضغوط نفسية هائلة: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} {48} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} {49}.

وفي هذه الفترة التي تصعد قريش من سخريتها وضغوطها النفسية على قريش تنزل سورة الضحى وسورة الشرح. وكلاهما تشحذان همة محمد وتجددان تأهيله النفسي لمواجهة المصاعب، بتذكيره بنعم الله عليه وتؤكد له أن الله معه.

سورة الضحى

وَالضُّحَى {1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى {2} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى {3} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى {4} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى {5} أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى {6} وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى {7} وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى {8} فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ {10} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ {11}.

(الآية: 6) نقول أن محمد نشأ يتيمًا، وبتوفيق من الله وجد من يؤويه. وقد تشير إلى كفالة جده أبو طالب له بعد وفاة أبيه، التي ذكرتها كتب السير والتاريخ.

(الآية: 7) تشير إلى أن محمد قبل البعثة مثله مثل أي قرشي لا يعرف دين الله. وهو ما ينفي عنه ما نسبته له كتب التراث.

سورة الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ {1} وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ {2} الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ {3} وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {4} فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا {5} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا {6} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ {8}.

والسورتان إجمالاً تخاطبا محمد وتشدان من أزره، وتجددان تأهيله النفسي للصبر وتحمل أعباء الدعوة. فتذكرانه ببعض نعم الله عليه السابقة وما ينتظره منها في الدنيا والآخرة.

بعد ذلك نزلت سورة نوح

وقد سبق نوح ذكر بعض الأمم السابقة لكن باختصار، أما هذه السورة فهي أول سورة تتحدث بالتفصيل عن قوم نوح أحد الأمم السابقة التي أهلكت بسبب عدم استجابتها لدعوة نوح الذي لبث

يدعوهم لمدة طويلة جداً، بخلاف كل الرسل الآخرين. وقد نزلت هذه السورة في هذه الفترة التي اتضح أن قريش أعلنت كفرها ولن تؤمن، وبعد أن تغير نوع الخطاب في السور إلى الشدة والوعيد الشديد، كما في النجم، ن والقلم، والطور.

وكل آيات السورة تتحدث عن قوم نوح، وتظهر تعنت القوم وجلد نوح واستمراره بالدعوة برغم ذلك. وكيف تنوعت دعوته من الترغيب والترهيب إلى التفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث، لكن تنوع أسلوب الدعوة ووضوح الحجة واستمرارها لمدة طويلة لم تغير من موقف القوم الرافض، والذي أعلنوه بعد بدء دعوة نوح مباشرة وأصروا عليه. وهو ما يعطي الدليل القاطع على أن من لم يؤمن بالدعوة في بداية سماعه بها فلن يؤمن بها بعد ذلك. وسنرى هذا يتكرر مع كل الأمم في كل مكان وزمان، كسنة سار عليها الناس، وقريش لم تكن استثناء.

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {1} قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ {2} أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا عَيْدُكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {3} يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {4} قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا {5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا {6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا {7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا {8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا {9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {10} يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا {11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {12} مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا {13} وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا {14} أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا {15} وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا {16} وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا {17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا {18} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا {19} لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا {20} قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا {21} وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا {22} وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا {23} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا {24} مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا {25} وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا {26} إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا {27} رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا {28}.

والسورة تحتوي على بعض العبارات التي استخدمت فيها الاستعارة والكنائيات، مثل: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا {6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا {7}.

تصوير حسي ولا يعني ما حدث بالفعل.

كما تحوي السورة بعض الآيات التي أسيئ الاستدلال بها من قبل المفسرين والمحدثين، ومن ذلك: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {10} يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا {11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {12}.

فهم يستدلون بهذه الآية على أن القحط وامتناع نزول المطر بسبب ذنوب البشر، ولو تابوا أو آمنوا فسيرسل الله عليهم السماء (المطر) مدراراً.

لذا نجد بلادنا كل فينة وأخرى يسارعون لصلاة الاستغاثة، وهي صلاة لا أصل لها في دين الله، ولا تجلب المطر. لأن الله خلق الكون وسيره بموجب قوانين طبيعية وفيزيائية ثابتة، لن تتغير لإرضاء بشر حتى لو كان رسولاً لله أو مؤمن به. والأرض التي نعيش عليها فيها مناطق مطيرة حارة، كالتي حول خط الاستواء، ومناطق مطيرة باردة مثل التي في المناطق المعتدلة الباردة. وهناك مناطق متوسطة المطر والحرارة، وصحاري قاحلة قليلة المطر حارة مثل بلادنا والصحراء الكبرى، وصحاري باردة. وتغير الطقس حدث ويحدث على الأرض، لكنه يحتاج لزمان طويل جداً لكي تتحول بعض المناطق الجافة لمطيرة، وبعض المناطق المطيرة لجافة. ولن يحدث هذا في فترة عمر الإنسان. بل من المؤكد أن مكة كانت جافة زمن إبراهيم ولا زالت كما هي.

والآيات تدعوا قوم نوح بالإيمان بالله الذي يرسل السماء بالمطر، والذي يرزق الناس بالمال والبنين. ولا تقول الآيات أن شرط نزول المطر أو الرزق هو طاعة الله. فالمطر ينزل كلما توفرت ظروف نزوله، بغض النظر عن معتقدات الناس. لذا نجد الطائف زمن رسول الله تتمتع بمناخ لطيف وأمطار، بينما مكة بيت الله والمدينة موطن رسوله بعد الهجرة تتعرض للجفاف وانقطاع المطر ومناخها شديد الحرارة، وسنرى في سور مدنية أن المدينة تصاب بالقحط وانحباس المطر ولم يشفع لها وجود الرسول بتوفر المطر ولو فترة حياته صلوات الله عليه.

الآيتان: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} {23} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} {24} ود، سواع، يغوث، يعوق، ونسراً هل هي أصنام،

كما يقول المفسرون؟ أم رجال دين من سلف قوم نوح تبعهم القوم ورفضوا دعوة نوح نتيجة لتمسكهم بالموروث؟ (شخصياً أميل لأنهم رجال دين)

خاصة أن رجال الدين والسياسة هم من يقود الناس للتمسك بالموروث وتشويه أي دعوة جديدة للدين الصحيح.

كما أن الآية 24 تقول: وقد أضلوا كثيراً. والأصنام لا تملك القدرة على ضلال الناس، مثل رجال الدين.

(الآية: 25) دليل على أساليب القرآن المميزة، وهنا الحديث بصيغة الماضي لما سيكون يوم القيامة وكأنه حدث بالفعل.

الآيتان: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} {26} إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} {27}. دليل على أن الدعاء لطلب شيء في الدنيا لا يستجاب، لأن الله خلق الدنيا دار عمل: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} {165} الأنعام.

ولو استجاب الله لدعوة بشر (أي بشر حتى لو كان رسول) وألحق ضرراً بالشخص المدعي عليه فهذا ظلم يخالف عدل الله المطلق الذي بموجبه خلق الكون وكل المخلوقات والحساب وكل شيء، فانه لا يتعامل بالعواطف. والدعاء المذكور في القرآن يعني طلب المغفرة، وليس طلب شيء دنيوي: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {60} غافر.

وما يؤكد ما نقول هو أن الله لم يستجب لنوح وبقي الكفار هم الغالبية على الدوام في الأرض ويتوالدون بخلاف دعوة وأمنية نوح. والنتيجة أن الشائع الآن بين كثير منا أن يطلب من الشخص المقابل أن يدعو له، وكأن الله يستجيب للواسطة (المعروفة جداً في مجتمعنا) وما يجب أن يعرفه الناس هو أن الدعاء لشيء في الدنيا لا يمكن الاستجابة له لأن الدنيا مشاعة للكافر والمؤمن على حد سواء: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} {الشورى 20}

والتوفيق في الدنيا لا تعني رضا الله، كما أن عدم التوفيق لا يعني سخط الله. فالكافر أو المسلم لو خطط ونجح تخطيطه لكسب في الدنيا بغض النظر عن عقيدته. لأن نجاح الدنيا يخضع لعناصر دنيوية منها الحظ والتخطيط السليم... الخ.

كما أن كل ما يقع في الدنيا من ظلم وأكل لحقوق الناس أو تعديات، لن يعاقب عليها الظالم والمعتدي في الدنيا ولكن يوم القيامة.

وآخر سورة نزلت في المرحلة الرابعة هي سورة القمر

وتتميز بنفس أسلوب السور السابقة من حيث الصرامة والوعيد الشديد. ونجدها تبدأ باستخدام صيغة ما كان للحديث عما سيكون، كأسلوب مميز للقرآن: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ {1}. مع أن الساعة لم تقترب والقمر لم ينشق، ولكنه تعبير مجازي وتصوير حسي لانتهيار هذا الكون بانشقاق القمر، وعندها تكون الساعة، وسبق ومرر بنا آيات مماثلة، مثل: ومثله: {أَزِفَتْ الْأَزِفَةُ} {57} لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ {58} النجم. فالآزفة (القيامة) لم تأت بعد.

(الآيات: 2-8) تأكيد على أن قريش تجاوزت نقطة العودة للحق ولن تعود مهما يروا من آية وبرهان على صدق دعوة محمد. وتقول لمحمد لا تهتم لكفرهم وموعدهم الساعة: وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ {2} وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ {3} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ {4} حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ {5} فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ {6} خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ {7} مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ {8}.

والآيات لا تقول أن قريش قد رأت آية (معجزة) ولكنها تقول حتى لو رأوا كل المعجزات فلن يؤمنوا. والدليل على أن قريش لم يروا أي معجزة حسية آيات كثيرة نزلت في سور لاحقة ومن ذلك: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {203} الأعراف.

والأعراف من سور المرحلة التالية (الخامسة).

(الآيات: 9-42) تصف كيف أهلك عدد من أمم سابقة تعرفهم قريش لأنهم من سكان جنوب غرب جزيرة العرب، وتذكير قريش بهم لأنهم أهلكوا بسبب كفرهم لعل قريش تعتبر مما حدث لهم: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ {9} فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَعْلُوبٌ فَاغْنِنِي مِنَ الْعَمَلِ فَأَنْصِرْ {10} فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ {11} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ {12} وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ {13} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ {14} وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {15} فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ {16} وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {17} كَذَبْتَ عَادَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ {18} إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ {19} تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ {20} فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ {21} وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {22} كَذَبْتَ ثَمُودَ بِالنُّذْرِ {23} فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ {24} أَلَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ {25} سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ {26} إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ {27} وَبَنَيْنَاهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ {28} فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ {29} فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ {30} إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ {31} وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {32} كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٍ بِالنُّذْرِ {33} إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ {34} نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ {35} وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ {36} وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ {37} وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ {38} فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ {39} وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {40} وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ {41} كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ {42} .

(الآيتان: 19-20) دليل آخر على أن يوم له عدة معاني، حيث تقول الآيات أن عاد أهلك بريح في يوم نحس مستمر، والمقصود سبع ليالٍ وثمانية أيام، وليس يوماً واحداً، كما ورد في سورة الحاقة التي سنأتي: {سَحَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} {7} .

لأن اليوم يأتي لعدة معاني أحدها اليوم المعروف، أو فترة زمنية مثل ما ورد هنا، فسبع ليالٍ وثمانية أيام متواصلة هي يوم مستر. ويأتي اليوم فترة أكبر، ألف سنة، خمسين ألف سنة، كما سنذكر السور. ويأتي اليوم كعصر جيولوجي يقدر ملايين السنين، ومن ذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام (ستة عصور جيولوجية). فالיום يعني: فترة زمنية متجانسة الملامح، بغض النظر عن طولها.

(الآيات: 23-26) نفس التهم الموجهة لمحمد من قريش، وهو منطق اتفقت عليه كل الأمم، وهو أحد أسباب تكذيبهم بالرسول ويتمثل بكون الرسول بشر منهم ومثلهم، وهو نفس منطق الناس الآن إذا ما تحدث معهم أحد بحقيقة مخالفة عقائدهم للدين القويم، فإن أول سؤال: من أنت؟ ومن تكون؟ مع أن الحق حق لا يهم من قاله.

(الآية: 31) الصحية تعني الزلزال.

(الآية: 34) حاصب يعني البركان. لابد من جمع الآيات كلها التي تتحدث عن هلاك أمة من الأمم لكي نفهم معاني هذه الألفاظ.

(الآية: 38) أن البركان الذي أهلك قوم لوط قد ثار في الصباح الباكر.

(الآيتان: 43-44) بعد أن سردت الآيات ما حصل لتلك الأمم، تتجه لمخاطبة قريش متسائلة: هل تظنون أن لكم منزلة عند الله أعلى من أولئك الأقوام حتى لا يقع بكم الهلاك. أم أنكم تظنون أنكم أكثر عدداً وستتغلبون على محمد والقلة التي معه: أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ {43} أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ {44}.

وتؤكد الآية التالية أن النصر في النهاية سيكون للرسول والمؤمنين: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ {45}، ثم سيلقي المجرمون (كفار قريش) مصيرهم: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرُ {46} إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {47} يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ {48}.

(الآية: 48) تصوير حسي وكنائية عن العذاب المذل لمكذبي قريش: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. وهم لن يسحبوا على وجوههم. كما أن السياق يعرفنا بمعاني الألفاظ حتى ولو لم يسبق أن سمعنا بها أو اطلعنا على قواميس اللغة، مثل لفظ "سقر" هنا والتي تعني النار.

ثم تقول السورة: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ {49} وهو تأكيد على أن الله خلق الكون بقدر، أي بقوانين ثابتة ولفترة زمنية محددة، وبعدها وفي الوقت المحدد سينتهي، ثم سينشأ كون القيامة (كما ذكرت آيات أخرى) عندها سيكون الحساب: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ {50}.

والآية: 50 تأكيد ودليل على أن الميت لن يشعر بمضي الوقت، لأن ذاكرته توقفت عن التسجيل، وعندما يبعث سيشعر أن مات للتو. وقد أكدت هذا سور كثيرة.

(الآيات: 51) ألا تعتبر قريش ممن هلك من أجيالهم، على كفرهم، وتؤمن قبل فوات الأوان: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ {51}.

ثم تتحدث الآيات عن سجل الأعمال: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ {52} وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ {53} وهي تلك الآلية في النفس البشرية التي تسجل كل الأعمال مهما صغرت.

وتختتم السورة ببشرى وعد للمؤمنين: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ {54} فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ {55}.

وهو ما يعني أن هناك نفر مؤمن في مكة في تلك الفترة.

وبعد أن انتهت سور المرحلة الرابعة، نسترجع أهم ملامحها، كما يلي:

- السور تتحدث عن إنكار قريش للبعث، وتستمر سور المرحلة الخامسة والسادسة بالحديث عنه، ثم يتوقف الحديث عنه في آخر مراحل الدعوة في مكة.
 - تقديم صور حسية لانهايار هذا الكون لتقول لقريش أن البعث سيكون بعد انهيار الكون، ثم بدأت السور تتحدث عن نشأة كون آخر بعد انهيار هذا الكون هو كون القيامة والبعث. (ستستمر بعض سور المرحلة القادمة في تقديم الصور الحسية عن انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة، ويتوقف في آخر مرحلة).
 - تقديم صور حسية لما في الجنة والنار، ويستمر تقديم هذه الصور في بعض سور المرحلة القادمة، ثم يتوقف.
 - تقديم أخبار لأمم سابقة، وسنجدها في كل مراحل الدعوة في مكة.
 - دعوة للتفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث، سنجدها في هذه المرحلة والمرحلة الخامسة، ثم تكاد لا تذكر في المرحلة السادسة والمرحلة الأخيرة.
 - قريش تكيل التهم لمحمد وتسخر منه ومن المسلمين ويستمر هذا في كل مراحل الدعوة في مكة.
 - وفي هذه المرحلة نزلت الضحى والشرح، وهما سورتان موجهتان لمحمد تشد من عضده وتحثه على الصبر على رفض وتعنت قريش وتهكمهم وسخريتهم.
- وبهذا نصل إلى نهاية برنامجنا اليوم، ونهاية سور المرحلة الرابعة. وسنبداً يوم الغد بإذن الله مع سور من المرحلة الخامسة.

ابن قنّاس